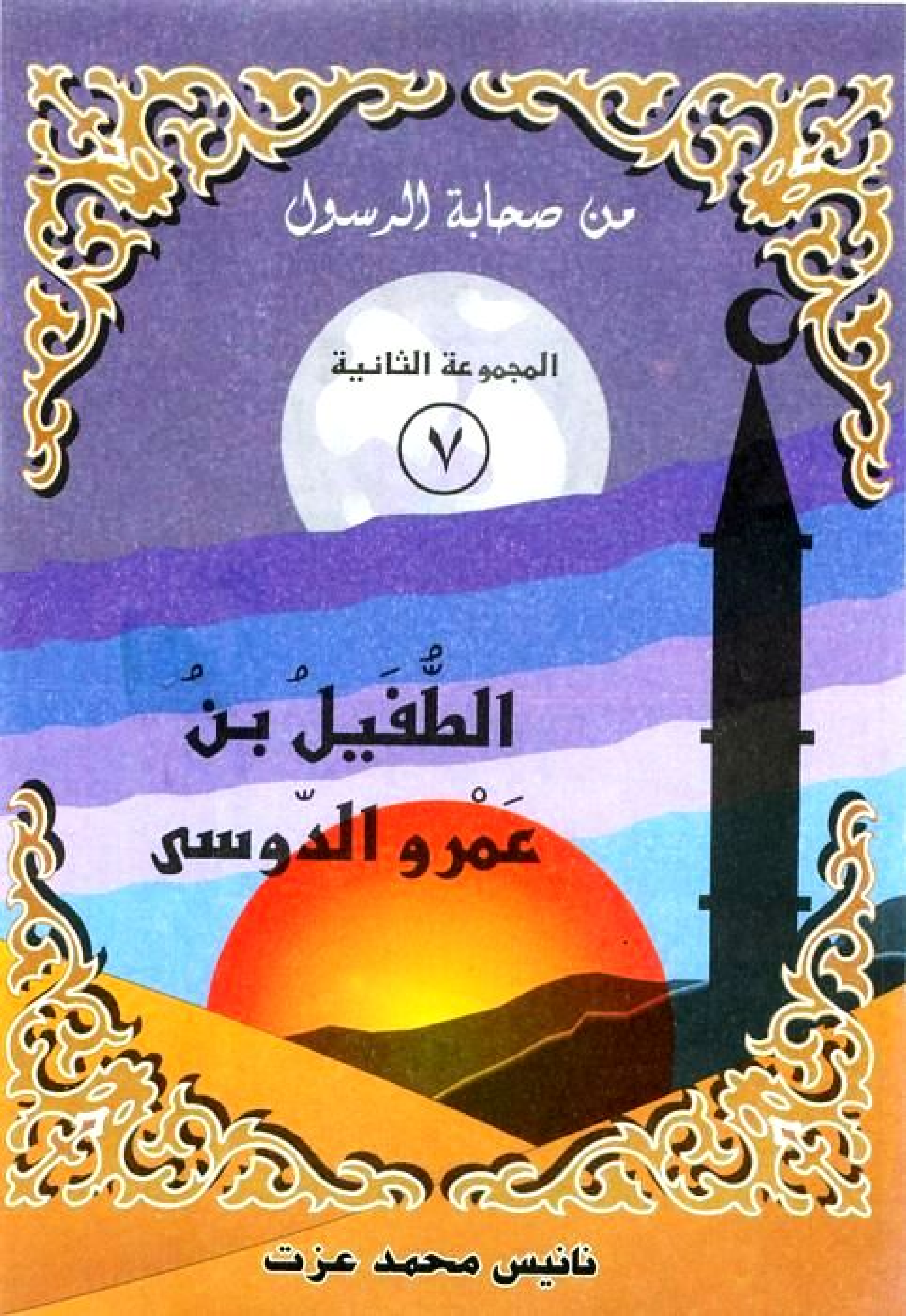

من صحابة الرسول
المجموعة الثانية
٧
الطُّفَيلُ بنُ
عَمْرو الدّوسى
نانيس محمد عزت

الطُّفيل بن عَمرو الدّوسىّ

رجع أحمد من المدرسة مُتأخّرا ، فاعتذر لوالـده قـال : آسـفُ يـا أبـى لتـأخُّرى ، فقـد كنّـا ندعـو للمَعركـةِ الانتِخابِيَّة .

سأله والده : أيَّةُ انتخاباتٍ يا أحمد ؟

قال أحمد : انتخاباتُ رائدِ الفصلِ يا أبىِ ، فنحن جميعًا نقف فى صفِّ صديقِنا عاصم ، فالمعرَكةُ حامية ، لوُجود خَصمٍ قَوىٍّ ينافِسُه .

قالَ والده : وهذا لَمصلَحتِكم ، فالُمنافسةُ عادةً تُؤدِّى إلى تَحسينِ الأداء .

قال أحمد : نحنُ مع صديقِنا عاصم ، ولن نُعيرَ مُنافِسَه أىَّ اهتمام .

سأله والده : ألم يفُز عاصم فى السَّنتَينِ الماضِيَتين ؟ فلماذا لا تغيِّرونه هذه السَّنة ، فتستفيدوا بأفكارٍ جديدة ، ومبادئَ مختلفة ؟

تأمَّل أحمدُ فى كلام والدِه وقال : ولكنَّ عاصمًا صديقُنا ، ولن نسمحَ بهزيمَتِه .

قال والده : المَصلحةُ فوقَ الصَّداقةِ يا بُنىَّ ، واختياركم رائدًا جديدًا للفصل لن يضرَّكم شيئا ، ولكنَّه سيُفيدكم حتما .

قالَ أحمد : أتعنى يا أبى أن نستمعَ للمُرشَّحِ الجديد ، ونقارنَ بينَه وبينَ صديقِنا عاصم ؟

ابتسمَ والِدُه وقال : قالَ واحدٌ من صَحابةِ رسولِ اللَّه ـ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ـ قبلَ إسلامه ، مقولَةً استمعْ إليها وتأمَّلْها ، قال : ثكِلتكَ أمُّك يا طُفَيل .. إنَّك لرجلٌ لَبيبٌ شاعر ، وما يخفَى عليك الحسَنُ من

القَبيح ، فما يَمنعُك أن تسمعَ منِ الرَّجل ما يقول ، فإن كان الّذى يأتى به حسنا قبلتَه ، وإن كان قبيحا تركتَه .

فكّر أحمدُ فى المَقولةِ فقال : كلامٌ معقول ، ولِمَ لا ؟ ، ولكنْ من هو هـذا الصَّحابىُّ يا أبى ؟ هلاّ حكيتَ لى قصَّته ؟

استجابَ له والدُه ، وراحَ يَحكى قِصَّته ، قال : إنّه يا بُنىَّ الطّفَيلُ بنُ عَمرو الدّوسىّ ، نِسبةً إلى قبيلة «دوس» الّتى كانَ سيّدا لها فى الجاهلِيَّة ، وكان كريمًا عطوفًا يُطعِم الجائع ويُؤمِّنُ الخائف ويُجيرُ المُستجير ، كما كان سيّدا مُهابًا جَليلا فى قَومِه ، عِلاوةً على أنّه كان شاعرًا مُرهَفا رقيقَ الشُّعور يتردَّدُ دائما على مكّةَ فى مواسم سوقِ عُكاظ ، حيثُ يفد إليها الشُّعراءُ من كلّ بقاعِ الأرض ، وكان الطُّفيل من الشُّعراءِ البارزين .

وبدأ النّورُ يسَطعُ فى مكّة ، وبدأ رسولُنا الكريم ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يدعو لعبادة الله الواحد الأحد ،

ونبذِ عبادة الأصنام ، فخافت قُرَيش على مكانتِها في الوجود وعلى زعامَتِها بين القبائل ، فعمِلت على إطفاء نور اللّه والصدِّ عن الدّين الجَديد بكلِّ وسيلة ، سواءً أكانت مَشروعةً أم غيرَ مشروعة . كما حرصتْ على ألاّ يلقى الطُّفيلُ محمَّدا - صلّى اللّهُ عليه وسلّم - فيُعلنَ إسلامه ، فتكونَ موهبتُه الشّعريَّةُ سلاحا في خدمة الإسلام ، فكان كلّما قدِم إلى مكّة ، استقبلوه أعظم استِقبال ، ورحَّبوا به أكرمَ ترحيب ، وداوموا على تَحذيرِه من مُحمَّد - صلّى اللّه عليه وسلّم - فقالوا له : يا طُفَيل إنك قدِمتَ إلى بِلادنا ، وهذا الرَّجل الّذي يزعُم أنّه نبيّ قد أفسدَ علينا أمرَنا ، ومزَّق شملَنا ، وشتّت جماعتنا ، ونحن إنّما نخشَى أن يحِلَّ بك وبزَعامتِك في قومِك ما قد حلَّ بنا ، فلا تكلم الرَّجل ، ولا تستمعنَّ منه شيئا ، فإن له قولا كالسِّحر يفرِّق بين الابن وأبيه ، وبين الأخ وأخيه ، وبين الزَّوجة وزوجها .

قال أحمد : ألهذه الدَّرجة كانت قريش تخشَى إسلامه ؟

قال والده : كانت للشّاعر فى تلك الأيّام يا أحمد مكانةٌ عظيمة ، بمثابةِ وسائل الإعلام فى أيّامنا هذه ، وكان لا يخلو مجلس من المجالس من الشُّعراء ، ومن إلقاء الشِّعر وسماع الشِّعر .

ونجد أنَّ الطُّفيلَ تأثَّر بكلام قريش وبتحذيرها ، فعندما ذهب للطَّواف بالكعبة حشا أذنيه بالقطن حتّى لا يسمعَ محمدًا - صلىَّ اللّه عليه وسلّم - ولا يُفتنَ بقوله .

ولكنَّ اللّه تبارك وتعالى يَهدى من يشاء ، وإرادته فوق كلِّ إرادة ، فعندما رأى الطُّفَيل الرَّسول يُصلىَّ ، أسره منظرُه ، واستولى عليه خشوعُه وورعُه وتُقاه ، فاقترب منه وقال فى نفسه مقولته التى سبق أن قالها : لماذا لا أسمع ما يقول ، فإن كان خيرًا قبلتُه ، وإن كان شرًّا ابتعدتُ عنه ؟

واستمع الطُّفَيل لقول النَّبىِّ - صلَّى اللَّه عليه وسلَّم - فأنشرح فؤاده للدّين الجديد فأعلن إسلامه ، وخرج إلى القُرشيِّين منشدا :

ياذا الكفَّين لست من عبادك

ميلادنا أقدم من ميلادك .

وذو الكفين صنم كانت تعبده قبيلة « دوس » .

فوقعت كلماته على قريش وقوع الصاعقة ، ولكنَّها خشيت أن تمسَّه بسوء ، فهو سيِّد قبيلته « دوس » ، فإن أصابه مكروه اشتعلت نار الفتنة بين القبائل .

ومكث الطُّفيل بمكَّةَ يتعلّم تعاليم الدّين الّذى أحبَّه ، وبعد أن أتمَّ حِفظَ ما تيسَّر له من القرآن استأذنَ رسولَ اللّه - صلّى اللّه عليه وسلّم - فى أن يعود لقومه ويدعوهم إلى الإسلام ، قال : إنّى يارسولَ اللّهِ امرؤٌ مطاعٌ فى عشيرتى ، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى

الإسلام ، فادع لى الله أن يجعل لى آية تكون عونًا لى فيما أدعوهم إليه .

فدعا - صلّى اللّه عليه وسلّم - ربّه قال : اللّهم اجعل له آية .

وكانت الآية الّتى دعا بها - صلّى اللّه عليه وسلّم - على مشارف القبيلة ، فأضاءَ اللّه بين عَيَنيِ الطُّفَيل ضياءً وهّاجا كأنّه السّراج . فَخشِيَ الطُّفيلُ أن يَظنَّ قومُه أنّ ذلك من غضبِ ذى الكّفينِ عليه ، فتضرّعَ إلى ربّه ألاّ تكونَ الآيةُ فى وجهِه ، فاستجاب الرّحمن لدُعائِه فكانت الآيةُ فى سَوطِه ، حيثُ أضاء رأسُ سَوطِهِ كالقِنديل المعلّق .

وبدأ الطُّفيلُ يدعو قومَه لعِبادة اللّهِ ونبذِ عبادة الأصنام ، فكانت النّتيجةُ أن آمن أهلُ بيتِهِ جميعا — أبوه وأُمُّه وزوجتُه وابنُه عَمرو - أمّا أهلُ قبيلته فلم يجد منهم

نفسَ القَبول ، فأعرضوا عنه جميعا إلاَّ واحِدا ، هو أبو هُريرَةَ الَّذى ما أن سمع دعوته إلاَّ وسارعَ إلى الإسلام .

قال أحمد : لماذا لم تُسلِمْ قبيلةُ « دوس » يا أبى ؟ أليسَ طبيعيًّا أن تتبعَ القبيلةُ زعيمَها ؟

قال والِدُه : هذا صحيحٌ يا أحمد ، ولكنَّ قبيلةَ « دوس » كانوا يُبجّلون ذا الكفَّين ويَعبدونَه ويتذَلَّلون إليه ، وأهمُّ من ذلك أنَّهم كانوا يخافونه أشدَّ الخوف ، حتى إنَّهم كانوا يتوقَّعونَ انتقامَ ذى الكَفّينِ من أهلِ بَيتِ الطُّفيل ، لتَسفيهِهِم إيّاه ، وكُفرِهم به.

وعادَ الطُّفَيل إلى رسول اللّه ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ حزينا ، وقال : قلوبٌ عليها أكِنَّةٌ وكفرٌ شديد .. غلب على « دوس » الفُسوق والعِصيان .

فتوضَّأَ رسولُ اللّه ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ وصلّى لِلّه ودَعاه : اللّهمَّ اهدِ « دوسًا » ، اللّهمَّ اهدِ « دوسًا » ، اللّهمَّ اهدِ « دوسًا » . ثم التفتَ إلى

الطُّفَيلِ وقال : ارجِع إلى قومِكَ وارفُق بهم وادعُهُم إلى الإسلام .

قال أحمد : وماذا بعدُ يا أبى ؟ هل أسلَمتْ « دوس » ؟

قال والِدُه : نعم أسلَمت ، ويرجِعُ ذلك لدُعائِه ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولصبرِ الطُّفيلِ وإصراره ، فما زالَ يَدعوهم حتّى أسلمَ ثمانونَ بيتًا من « دوس » ، هم أغلبُ القَبيلة .

وهاجرَ الطُّفيلُ وأفرادُ قَبيلتِه إلى المدينة ، لُمبايعةِ رسولِ اللّه . وكان ذلك إبّانَ غَزوةِ خَيبر . وأبَى الطُّفَيلُ وعَشيرتُه إلاّ أن يشاركوا فى الغَزوة ، وطلبَ من النّبىّ ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ أن تكونَ هم مَيمنَةُ الجَيش ، وذلك عِندما أحسَّ بقُوَّةِ الرُّكن الجنوبىّ من قلعةِ اليَهودِ ، وقال :

ـ يا رسولَ اللّه اجعَلنا مَيمَنتك واجعل شِعارَنا « مَبرور » .

ولانَتِ الحُصونُ وفُتحَت خَيبَر ، وكانَ هذا هو آخرَ عهدِ اليهودِ بالمَدينة . ولبِث الطُّفيلُ مع رسولِ اللّه ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ حتىَ أتمّ اللّهُ عليهم فتحَ مكّةَ ، ثمَّ استأذن من رسولِ اللّه ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ فى السَّفرِ إلى « دوس » لإحراقِ ذى الكفَّين صَنمِهَا المَعبود .

وتمّ إحراقُ الصَّنَم على مَشهدٍ ممَّن لم يُسلموا بعد ، وهم يَتربَّصون السّوءَ بالطُّفَيل ، ويتوقَّعونَ أن تكونَ نِهايتُه إذا مسَّ ذا الكفّينِ بُضرّ .

وما أن تمّ إحراقُ الصنم إلاّ وأسلمَ الجميعُ فى « دوس » فقد رَأَوْا مدَى ضَعفِ ذى الكفّين وهَوانِه ، حتّى إنّه لم يَستطِع أن يكُفَّ الأذَى عن نَفسِه .

ولازمَ الطُّفَيلُ رسولَ اللّه ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ حتّى لقِىَ الرّسولُ ربّه ، وخلَفَه أبو بكرٍ الصّديق . وحِزنَ الطُّفَيل وابنُه عمرو لِردّةِ بعضِ المُنافِقينَ عن

الإسلام ، فكانا حَريصَيْنِ على المُشاركةِ فى حروبِ الرِّدَّة ، ليحَفظا مكانةَ الدّين وهَيْبَته .

وشاركَ الطُّفَيل فى حرب طُلَيحةَ الأسدىِّ ، حتّى قُتِل طُلَيحة . وحاربَ فى نجدٍ ، وكان ضِمنَ الجَيشِ الّذى بعَثهُ أبو بَكرٍ الصّديقُ إلى اليمامَةِ لحربِ رأسِ الكُفرِ والشّركِ مُسيْلَمةَ الكذّاب .

وفى ليلةِ المعرَكة ، رأى الطُّفَيلُ رؤيا استَبشَر بها فقال : إنّى رأيتُ رأسى حُلِق ، وأنّه خرج من فَمى طائر ، وأنّ امرأةً أدخَلتنى فى بطنِها ، وأنّ ابنى عَمرًا جعل يَطلُبنى حَثيثا ، لكنّه حيلَ بينى وبينَه .

وأوّلَ رُؤياه مستَبشِرا فقال : أمّا حَلقُ رأسى فذلك أنّه يُقطَع ، وأما الطّائر الّذى خرجَ من فَمى فهو روحى ، وأمّا المَرأةُ الّتى أدخلَتنى فى بطنِها فهى الأرضُ تُحفَرُ لى فأُدفَنُ فيها ، وإنّى لأَرجو أن أُقتلَ شَهيدا ، وأمّا طلبُ ابنى لى فيَعنى أنّه يطلبُ الشّهادةَ الّتى سأحظَى بها

ولكِنّه لايُدِركُها فى هذه المعرَكَة ، ولكنّه يُدرِكُها فيما بعد .

قالَ أحمد : ياللشَّفافِيَةِ والإيمانِ الرّاسِخ ، إنه رأى رؤيا استِشهادِه ، ومع ذلك تقدَّم للمعركَةِ ولم يَخْشَ .

قالَ والدُه : إنّه إنّما دخلَ المعركةَ طالبا الشَّهادَة ، فلماذا يخافُ والشَّهادةُ هى مُنتَهَى أملِه فى الحَياة .

وما لبِثَ وهو يُطيحُ برُءوسِ الشّرك ، أن رماه رجلٌ برَميةِ سيفٍ غادر قطعَ عُنقَه ، فخرَّ شَهيدًا وصدَقتْ رؤياه .

وتحمَّس إبنُهُ عَمرو عِندَما رأى استِشهادَ أَبيه ، فراحَ يَكيلُ الضَّرَباتِ يَمينًا وشِمالاً طلبًا للشَّهادَة ، ولكنَّ أجلَهُ لم يَحِن بعد ، وإن كانت يَمينُهُ قُطِعت .

قال أحمد : لابدَّ أنَّها كانت مَعرَكةً شَرِسَة .

قال والدُه : هذا هو الوَصفُ الصَّحيحُ لَها ، فمُسيْلمَةُ وأعوانه قُوَّةٌ لايُستهانُ بها ، ولكنَّها انهارت

تَحتَ وطأةِ سُيوفِ المُسلمينَ الجبّارَة ، فقُتِل زعيمُ الشّركِ مُسَيلِمَة ، وقُتِل الكثيرُ من أعوانِه ، وعادَ الكثيرونَ من المُسلِمينَ الّذين ارتَدّوا عن رِدّتِهم . وتمنّى عَمْرو أن يلحَقَ بأبيه وينالَ شرفَ الاستِشهادِ في سَبيلِ اللّه ، ولكنَّ أُمنِيَته لم تَتحقّق إلا في عهدِ ثاني الخُلفاءِ الرّاشِدينَ عُمرَ بنِ الخَطّاب في معركةِ اليَرموك ، عِندما خرجَ لمُلاقاةِ الرّومِ تحَت إمرَةِ أبي عُبيدَةَ بنِ الجَرّاح .

قال أحمد : إنّها قصّةٌ رائعَة يا أبي ، قِصّةُ شهيدين بذلا روحَيْهما في سَبيل اللّه ، قِصّةُ إيمانٍ راسخ ، وعَقيدَةٍ قويّة ، وإصْرارٍ على نَشرِ الدّين .

قال والده : أرأيت يا ولدي لو أنّ الطُّفيلَ أصمَّ أُذنَيْهِ عن الدّعوة ، والاستِماعِ لرَسولِ اللّهِ - صلّى اللّه عليه وسلّم - لكانَ خَسِرَ الكَثير ، وخَسِرَ الإسلامُ أحدَ أبطالِهِ العُظَماء .

قالَ أحمد : هـذا حقّ ، فيجـبُ علـى الإنسـانِ أن يَستعمِل عَقلَـه فـى التّميـيز بـينَ الصَّـوابِ والخَطأ ، ولا يَعتمدَ على آراءِ الآخَرين .

وغدًا إن شاءَ اللّه سَنعقِدُ اجتماعًا مع المُرشَح الجَديـدِ لرِيادَةِ الفَصـل ، وسنُناقشُـه حتـى نطّلـعَ علـى أفكـارِه . ليكون انتخابُنا للأصلحِ مِنهُما إن شاءَ اللّه .